فن العمارة العسكرية السورية

منذ الألف الثاني قبل الميلاد حتى آخر العهد البيزنطي

للدكتور

سليم عادل عبد الحق

مدير الآثار العام

في سورية عدد كبير من الآثار العسكرية التي أنشئت في كل بقعة من أرجائها ، ولاسيما في مناطق الحدود ، وفي المنافذ الطبيعية التي اعتادت الأقوام الغازية أن تمر منها إلى أراضينا . وما ذلك إلا لأن موقع بلادنا الجغرافي بين القارات الثلاث جعلها ممراً ضرورياً لهذه الأقوام التي عاشت حول بلاد الشرق الأدنى ، والتي حاولت إنشاء امبراطوريات كبرى ، وسيادة العالم القديم . كما أن غنى تربتها ، وازدهار مرافق الحياة الاقتصادية فيها ، اجتذبا اليها السكان ، وأطمعا عدداً من الشعوب الفقيرة باستعمارها . فكان أن دفعت غرائز البقاء الأمم السورية الأصيلة أن تعمل جهدها في تأمين دفاعها . فحصنت مدنها وقراها بالأسوار ، وأقامت عليها الحصون والأبراج ومحطات المراقبة منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، حتى الزمن الذي استخدم فيه البارود استخداماً شاملاً في الحروب ، حيث كفَّ نفع هذه المنشآت العسكرية في صد الغارات الهجومية ، واهملت العناية بها فزال قسم منها ، وتهدم قسم آخر ، وبقي قسم ثالث قائماً وشاهداً على تاريخ عسكري مجيد .

وما أشبه أراضينا بمتحف حربي كبير ، تعرض فيه الطبيعة نماذج متنوعة منها ، فتلهم من يتأملها كثيراً من التأثر الممزوج بالاعجاب على ما قام به الأجداد من أعمال لتأمين بقاء عرقهم ، ودفع المصائب عنهم ، وصيانتهم من الفناء والقتل والاستباحة ، وتحريرهم من الخوف في الأوقات العصيبة ، وجعلهم ينصرفون إلى انشاء مدنياتهم الزاهرة ، والاستمرار في بذل فاعليتهم المبدعة خلال مراحل التاريخ السوري الطويل .

ويتبين من دراسة هذه الآثار العسكرية أن تطورها كان مستمراً ، وأن تحسينات مختلفة طرأت عليها ، لكي تصبح متفقة مع غاياتها الدفاعية في صد العدوان ، وتحطيم موجات الإغارات . ويرجع أقدمها إلى تلك الأسوار الابتدائية التي أنشأها العموريون والكنعانيون والفينيقيون حول مدنهم الصغيرة حفاظاً على ما تحوي من منازل مجتمعة تصل بينها طرق متعرجة ضيقة وملتوية . وكانت هذه المدن قريبة من الحقول الزراعية ومجاري المياه ، وتقام في غالب الأحيان على الهضاب والتلال والمرتفعات لمناعتها الطبيعية ، وسهولة الدفاع عنها ، لاسيما وان الأسلحة التي كانت تستعمل في الهجوم بسيطة ، وأن عدد الجيوش المهاجمة والمدافعة كان قليلاً . لهذا فقد بنيت أسوارها من الطوب المجفف الذي يخالطه القش .

غير أن المهندسين السوريين القدماء جعلوا يحولون تدريجياً شكل إنشاء الأسوار البسيط المتقدم ويمزجون الطوب بأحجارها ، ويغطون مزيج الطوب والحجر بغشاء من الطين ، ويدخلون استعمال العوارض الخشبية فيها ، حتى لا تتداعى إذا اشتد الضغط عليها . كما أنهم جعلوا يزيدون في ثخنها ، حتى صار هذا الثخن يتراوح بين (٤،٢٥ — ١٠ امتار) . ويجدر أن يلاحظ أن هذه الأسوار السورية لم تكن مدعومة بالأبراج ، وذلك لكفايتها للثبات أمام الهجمات . إذ أنه لم يكن لدى الجيوش المهاجمة من وسائل للاستيلاء على المدن المحاصرة إلا الهجوم وتسلق الأسوار ، وإلا نسف هذه الأسوار بواسطة نقبها من أسفلها . ولم تستخدم طرق دقها بواسطة الحملان إلا في الألف الأول قبل الميلاد في زمن استعلاء الآشوريين . لهذا فان المدافعين عن المدن السورية القديمة كانوا يقفون على أسوار مدنهم ويستعلون على أعدائهم ويصدون هجماتهم . غير أنه كان يجب عليهم منع هؤلاء الأعداء من الدنو إلى أسفل أسوارهم حتى لا يتمكنوا من نقبها أو تهديمها . مما دعا لأن تبنى الأسوار فوق المنحدرات الصخرية التي تتألف منها الخطوط الدفاعية الأولى ، وأن تساير الأسوار صعود هذه المنحدرات

وهبوطها ؛ وأن تعلو بعض خطوطها بعضاً (١) . إلا أنهم ما كانوا يضعون أسوارهم تماماً على حافات المنحدات الصخرية ، لأن هذه المنحدرات ليست صلبة دوماً ، وإذا انهارت لسبب ما ، لأدى انهيارها إلى تهدم الأسوار . ولهذا فانهم أخروا خطوطها قليلاً إلى أعلى المرتفعات ودعموها بأبراج بارزة وسنرى بعد قليل دور هذه الأبراج في الدفاع .

ودفعوا لإنشاء منحدرات اصطناعية من حولها . وكانت هذه المنحدرات في بادئ الأمر من الطوب (٢) . وفي فاتحة الألف الثاني قبل الميلاد ظهر نموذج جديد من التحصينات ؛ كشفت عنه الحفريات في عدة أنحاء من فلسطين (٣) ، وذلك باضافة الخندق إلى المنحدر ، أي بحماية المنحدرات بحواجز مائية . وكان ذلك خاصة في مناطق السهول كمنطقة النقب التي ليس لها أية مناعة طبيعية . وقد أدى انشاء الخنادق إلى أن تبنى حول الأسوار جدران مائلة Talus عوضاً عن المنحدرات . وكان في هذا الاستبدال تعزيز لمناعة المنشآت العسكرية . إذ أن الانحدار في الجدران المائلة شديد ، ويجبر المهاجمين على ان ينكشفوا تماماً ، ويجعل تسلقهم عليها صعباً ، ويعرضهم لتحمل قذائف المدافعين مدة طويلة . وكان في هذا الابتكار نقطة انطلاق فن العمارة العسكرية نحو التكامل . ويظن انه حدث في سورية الشمالية ، وأنه امتد منها إلى فلسطين . ومنها أدخله السوريون الذين عرفوا باسم (الهيكسوس) إلى مصر ، فبنوا على هذه الطريقة أسوار مدينة (تانيس) و (تل اليهودية) وغيرهما .

ثم ان المنحدرات والجدران المائلة تستوجب اعتناءاً مستمراً إذا كانت من الطوب من جهة ، ويستطيع العدو إذا دفع ثمن جرأته للوصول إليها أن ينقبها من جهة ثانية . وهذا ما دعا المدافعين عنها إلى أن يستروها بدروع متماسكة من الأحجار لمنع عمليات النقب والتهديم . على أن هذه الدروع تتطلب تكاليف باهظة لم تكن تتوفر لدى كل المدن السورية القديمة . لذلك فان سكانها عملوا على ايجاد حلول أكثر مرونة وأقل كلفة ، فجعلوا على سطوح خطوط

---

(١) يشاهد ذلك خاصة في سور (عي) الواقعة في المنطقة الوسطى بين تلال السامرية وجبال اليهودية . ويرجع عهد هذا السور إلى آخر الألف الثالث قبل الميلاد ، وفي سور (عين شمس) الذي يمكن نسبته إلى النصف الأول من الألف الثاني ، وسيأتي الكلام عنها بشيء من التفصيل . أنظر ما كتبته عنها :
H. Vincent, *Canaan d'après l'exploration recente*, Paris 1907.
A. G. Barrois, *Manuel d'Archiologie Biblique*, Tome I, Paris 1939.

(٢) في (تل الجزر) وفي (جبيل) وفي (عي) شوهدت هذه المنحدرات بالقرب من الأسوار .

(٣) لاسيما في حفريات (تل القدح) و (تل العجول) و (تل دوير) و (تل بيت مرسيم) و (تل الحصي) .

الدفاع المتعاقبة منحدرات صغيرة تستخدم مهابط السفوح الطبيعيـة ، بحيث أن هذه الأجهزة الدفاعية صارت طبقات متعددة تختلف عن المنحدرات والجدران المائلة التي تقدم ذكرها (١).

ثم هدت التجارب السوريين القدماء إلى وجوب تعزيز الأسوار بأعضاء تسندها حفظاً لها من التهدم والسقوط . وذلك عن طريق دعمها بأبراج ناتئة في زواياها وفي طرفي أبوابها وفي أواسط أضلاعها . وقد توخوا من ذلك أيضاً مركزة قذفهم على مناطق معينة يهددها العدو أكثر من غيرها ، عن طريق تقاطع مرامى رمي رماة القذائف المدافعين وقفز هذه القذائف على المنحدرات وتأمينها اصابة المهاجمين . ولم تلبث هذه الأبراج أن تضخمت في بعض الحالات ، وتحولت إلى حصون وقلاع ، واختلفت أشكالها ، فصارت مربعة ومستديرة وذات أضلاع متعددة (٢) .

ولما كانت الأبواب أكثر عرضة للهجمات في المدن المحصنة ، وكان من الواجب دعم درفاتها بأعضاء أقوى من بقية أجزاء السور ، لذلك فانها سندت من طرفيها بدعائم قوية ، ثم بأبراج . وكذلك جعلت دعائم لها من الداخل حتى أصبحت تحدث فيما بينها ممرات على شكل قاعات صغيرة . وكانت تعترض مسير هذه القاعات دعائم عددها اثنتان أو أكثر تجعل من تخطيطاتها سلسلة من الممرات المخنوقة وتعطي هذه التخطيطات شكل (الكماشة) وهذا ما دعا لتسميتها بهذا الأسم (٣) .

وقد عمت مبادئ هذه العمارة العسكرية المتقنة كل بلاد الشرق الأدنى ، فانتشرت في مصر وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى . وقد أخذها الحثيون واستخدموها في تحصين مدنهم في شمالي سورية والأناضول ولاسيما في (بوغازكوي) . فكانت هذه البلاد بذلك عاملاً مهماً من عوامل حفظ المدنيات من إغارات المعتدين ، وصيانة الأرواح ، والتخفيف من شر الحروب وما تجره من فظائع وويلات .

وتكاثرت هذه المنشآت العسكرية في فلسطين خاصة ، وذلك لأن الفراعنة دفعوا للخروج من أرض مصر والاستيلاء على سورية الجنوبية تأميناً لبلادهم من إغارات المغيرين في كل عهود

---

(١) ومن النماذج الأولى : منحدرات (تل الحصي) و (أريحا) ، ومن النماذج الثانية منحدرات (سيشم) و (بيت مرسيم) .

(٢) تشاهد هذه الأبراج خاصة في منشآت تل الحصي ، وتعنق ، وتل زكريا .

(٣) ومنها أبواب (تل الجزر) و (عين شمس) و (تل الفارعة) و (بيت مرسيم) وغيرها .

التاريخ المصري القديم أي في زمن الأمبراطورية القديمة ، وفي زمن الامبراطورية الوسطى ، وفي عهد الامبراطورية الحديثة . وقد تكاثرت المنشآت العسكرية خاصة في السهول الساحلية . وأشهرها سور (أبو هوام) . وهذا الموقع مرفأ صغير تجاري كان على مصب نهر قيسون ، غير انه اليوم بعيد عن الساحل . وقد نقب فيه هاملتون ووجد سوراً مبنياً من احجار ضخمة جداً (١) ، وذا شكل بيضوي بعرض مقداره متران ، وفي طرف منه دعامة ضخمة عرضها أربعة أمتار ، وفي جهته الغربية المشرفة على البحر قلعة . ويظن أنه من منتصف الألف الثاني . وقد تهدم فيما بعد وأعيد إنشاؤه مرات متعددة . وشوهد في موقع (تل جريشة) الواقع على نهر يافا سور آخر من الطوب له منحدر من الآجر ، وفيه باب على شكل الكماشة التي تقدم ذكره (٢) .

كما اجتمعت هذه المنشآت في سهوب النقب ، وتكاثرت فكانت خطوطاً منيعة حمت سورية الجنوبية . وأشهرها سور مواقع (تل جمة) و (تل الفارعة) و (تل العجول) في منطقة « غزة » . وفي تل (جمة) سور من الآجر تهدم أكثر أجزائه ولم يبق منه إلا حصن ضخم مربع في رأس التل . ويظن أنه من زمن امنوفيس الثالث (٣) . ويحيط بتل الفارعة واديان ، وموقعه حصين جداً . وللسور منحدر من الطوب ارتفاعه (١١ متراً) ، وانحدار قدره ٣٣ درجة . وهو ينتهي في خندق عمقه (٢ — ٣ امتار) . وهو قديم جداً وقد نشأ بدلاً عنه سور آخر من الآجر في النصف الثاني من الألف الثاني ، له قاعدة من الأحجار (٤) .

---

(١) اقرأ ما نشر عنه Hamelton في الجزء الثالث ، الصحيفة ٧٤ ، والجزء الرابع ، الصحيفة ١١٠ من مجلة :
Quarterly of the Dep. of Antiquities in Palestine.

(٢) انظر البحث الذي كتبه E. Sukenik في الجزء الخامس ، الصحيفة ١١١ من مجلة :
Quart. of the Dep. of Ant. in Pal.

(٣) طالع الجزء الثاني ، الصحيفة ٣ من كتاب :
Witzinger, Dinkmäler Palestinas
Flinders Petrie, Gerar, London 1927 ; Revue Biblique 1929 p. 92 ss.

(٤) يرجع في معرفة (تل الفارعة) من الناحية الأثرية إلى المصادر التالية :
Flinders Petrie : Beth Pelet I London 1930 — Beth Pelet II.
Eann Macdonald : Prehistoric Fara.
J. L. Starkey and Lankester Harding, Beth Pelet cemetery, London 1932.
Revue Biblique, 1938, p. 316.

أما تل العجول القائم على الشاطئ الأيمن من وادي غزة ففيه سور من هذا الزمن ، وله منحدر قدره (٣٤ درجة) ، ونفق طويل يتجه من الغرب إلى الشرق [١] .

وأبانت التنقيبات الأثرية في منطقة التلال من فلسطين عدداً من هذه المنشآت العسكرية القديمة . واشهرها منشآت (تل الحصي) الواقع على بعد ٢٦ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من غزة . وقد نقب فيه « فلاندرس بتري » المشهور في سنة ١٨٦٠ ثم العالم « بليس » . وشكله ذو اضلاع متعددة تتخذ شكل الهضبة الرباعي . وهو من أول الآلف الثاني قبل الميلاد [٢]، ويتألف بناؤه من الآجر ، وسمكه (٣،٥ م) وله منحدر من الطوب مستور بدرع من الأحجار الضخمة . وفي جهته الشمالية برج عرضه (١٧ متراً) ، ويبرز عن مستوى السور بـ (٦ أمتار) . ومنها أيضاً منشآت (تل زكريا) العسكرية . ويقع هذا التل في وسط منطقة التلال . ويحوي قلعة طولها (٨٢ متراً) ، وعرضها (٤٨ متراً) ، ولها أبراج بارزة في زواياها . وتشبه بشكلها العام وتحصيناتها عدة قلاع قديمة في شرقي الأردن . أشهرها (تل زكريا) ، و (تل الصافي) ، و (تل السندحانة) ، و (تل الجديدة) [٣] .

على أن أشهر الأسوار الحصينة في فلسطين القديمة هي أسوار (تل الجزر) المشرفة على سهل صارون . إذ أنها تعطي فكرة واضحة عن منشآت الدفاع الاصطناعية لمدينة كبرى . وتمتد على محور طوله (٥١٢ متراً) من الغرب الى الشرق بين هضبتين ، ويبلغ عرضها من الشمال الى الجنوب نحو (٢٤٥ — ١٠ أمتار) . وقد دلت الحفريات في موقعها على أنه تعاقبت عليها ثلاثة أسوار : أولها سور قديم جداً مبني من أحجار غليظة غير مسواة ، ويرتفع حالياً نحو مترين ، ويبلغ سمكه (٦٨ سم) ؛ وله من الخارج منحدر من التراب مستور بطبقة من الأحجار الصغيرة على شكل ربع دائرة . ويرجع عهده الى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد . وثانيها سور يقع وراء السور الأول ، ويبلغ سمكه الوسطي نحو (٣،١٥ م) ،

---

(١) تراجع المصادر التالية :
Flinders Petrie, Ancient Gaza I, II, III and IX (Publication of the British School of Archaology in Egypt). London. 1931-1934.

(٢) انظر في :
Flinders Petrie : Tell el Hésy (Lakish) London, 1891 — Bliss, A mound of many cities, London 1894.

(٣) الموقعان الأولان في وادي السلط والثالث في جنوبي بيت جبرين والرابع في شماله . وقد وصفت كلها في كتاب :
Bliss and Mocalister. Excavations in Palestine, London 1902.

وكانت له أبراج مستطيلة تدعمه من الداخل والخارج . وهو مبني أيضاً من الأحجار التي هي هنا من القطع المتوسط . وكان له بابان في الزاوية الشمالية الشرقية ، وفي مدخل الهضبة الجنوبية . وهـذا الباب الأخير مؤلف من كتلتين من الطوب بارزتين على الأسوار ، وعرضهما (٨،٦٨ — ٨،٤٢ م) ، وبينهما مدخل طوله (١٢،٩٠ م) وعرضه (٤،٥٧ م) ، وفي كل جانب من جانبيه ثلاث دعائم . فهو باب من نموذج باب الكماشة . ويرقى زمنه إلى أول الألف الثاني قبل الميلاد . وثالثها سور يقع في شرق المدينة ، أسسه عميقة ، وارتفاعه الحالي (٣،٦١ م) من أصل (٤،٢٧ م) . وكانت أجزاؤه العلوية من الآجر على ما يظهر . وفيه سلسلة من الأبراج المستطيلة . وهو من منتصف الألف الثاني . ويظن أنه حدثت فيه اصلاحات متعددة فيما بعد [١] .

وهنالك أيضاً أسوار (عين شمس) التي تقع في وادي الشرار في مركز استراتيجي مهم على ملتقى الطرق بين فلسطين الوسطى والشمالية ، والطرق المستعرضة المارة على منطقة التلال . وتشرف هذه الأسوار على هوات صخرية سحيقة ، وتتتابع محدثة شكلاً بيضوياً تاماً . وتتألف من أحجار ضخمة ملتصقة بعضها بمونة من الطين . وسمكها المتوسط (٢،٥٠ م) . ولم تكن لها منحدرات ، وبينها برج مستطيل يبرز عنها بمقدار (٥،٩٥ م) وطوله (٩ امتار) . كما ان الباب الرئيسي يقع في منتصف الجهة الجنوبية ، وهو من نموذج الباب ذي الكماشة ، وله ثلاث دعائم في ممره ، الذي يبلغ طوله (١٢،٣٠ متراً) . وفيه غرف لاقامة المدافعين عنه ، ويتصل بدرج يصعد عليه إلى سطح الأسوار . ويظن أنه من أول الألف الثاني قبل الميلاد [٢] .

ويصعب تعداد كل ما أظهرت الحفريات الحديثة من آثار عسكرية في فلسطين [٣] . ويجدر

---

(١) للاستزادة في الاطلاع على آثار هذا الموقع تراجع المصادر التالية :
P. Vincent, Canaan; Macalister, The Excavation of Gezer, 3 vol., London, 1912; Revue Biblique, 1914, p. 373 ss. et p. 504 ss.; 1923, p 552 ss. et 1924, p. 161 ss; Quart. of the Dep. of Ant. in Pal, IV, p. 198 ss.; Palestine Exploration Fund Quart. Sp. 1935, p. 19 ss.

(٢) كتب عن آثار (عين شمس) ما يلي :
Palestine Exploration Fund, Annual I (1911) and II (1912 - 1913); E. Grant, Beth Shemesh. Excavation 1928 - 1929 - 1930 - 1931, Part I and II, 1931-1932; Quart. of the Dep. of Ant. in Pal. III p. 173.

(٣) ومنها أسوار (تل مرسيم) الواقعة على نهاية الطريق الشمالي الجنوبي من منطقة التلال إلى النقب [انظر في أبحاث العالم اولبرايت Albright عنها في أعداد مجلتي : (American Journal of Archaology) و (Bulletin of the American School) لسنوات

أن تنهي بحثنا عنها بالكلام عن أشهر ما بني في شمالها [1] . ويأتي في طليعتها قلعة (ماجدو) المشهورة التي تذكرها الوثائق المصرية مراراً . وأشهر الوقائع التي جرت فيها المعركة التي قامت في أول القرن الخامس عشر بين تحوتميس الثالث وبين عدد من الأمراء المتحالفين السوريين ومنهم امير قادش والأمراء الحوريين وأمراء كيليكيا وسكان نهارينا . فانتصر عليهم تحوتميس واعتصموا في قلعة المدينة التي حاصرها المصريون وكان فيها ٣٣٠ اميراً . ودام الحصار سبعة اشهر ، واخيراً استسلم امير ماجدو ، وفر امير قادش وغنم المصريون غنائم كثيرة [2] . وتقع في النهاية القصوى الشمالية لوادي (عرا) . ولها سور قديم يمتد على سفح التل على درجات قاعدة اصطناعية منشأة من الأحجار المتماسكة بالغضار . وللسور منحدر طوله ٥ امتار وهو من الغضار الصافي الذي لا يسمح ابداً للعدو في الزمن المطير بالصعود إليه . اما السور فهو من الآجر وسمكه يتراوح بين (٨ ـ ١٠) امتار ، وتعترض مسيره نتوءات كثيرة . وقد عثر في شماله على باب محصن وهو على نموذج (باب الكماشة) [3] . ومنها تحصينات (أريحا) المدينة الكنعانية المهمة . وكانت لها ثلاثة اسوار ، اثنان منها شكلها بيضوي . واولهما خارجي ، وهو من الألف الثالث قبل الميلاد ، والثاني حول رأس التل وهو من الزمن الكنعاني . والاثنان مبنيان بالآجر على قواعد واسس حجرية . اما السور الثالث فهو مزدوج ويرتكز على خط

١٩٣٠ و ١٩٣٣] وتؤلف شكلا بيضوياً ، وسمكها يتراوح بين (٤ ـــ ٥ م ' ويبلغ ارتفاعه في بعض جهاته (١٠ أمتار) وله منحدر من الطوب ، وخندق عرضه (١٠ ـــ ١٢ متراً) ، وبابان شرقي وغربي . ومنها أسوار تل دوير (لاكيش القديمة) البعيدة عن حبرون بمسافة (٢٥ ك.م) ولها منحدر يشبه منحدرات قلاع النقب . وقد تهدمت في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد من جراء حملات فراعنة الامبراطورية الحديثة . انظر في :

Quart. of the Dep. of Ant. in Pal. III p. 182; IV p. 206 ; V p. 205; VI p. 223; VII p. 53.

(١) ومن هذه أسوار (تل قوم) و (تعنق) و (بيسان) ، وليس لها ما يميزها كثيراً عن التي تقدم الكلام عنها .

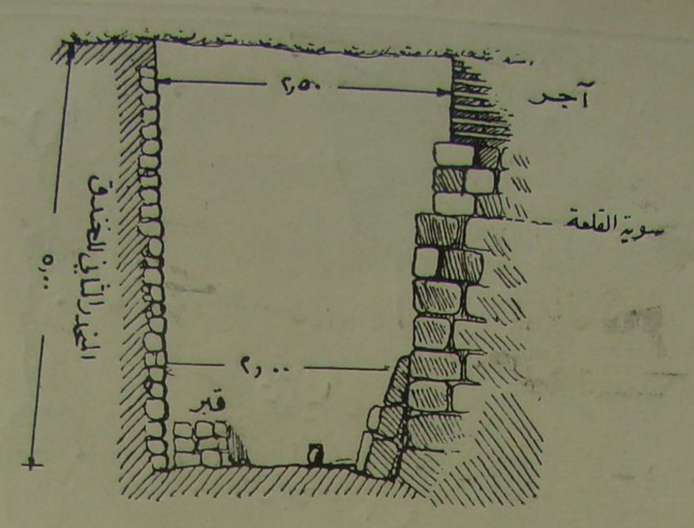
(٢) انظر كتاب : A Moret : Histoire de l'Orient t. II p. 494 .

(٣) للتوسع في معرفة خصائصها ينظر في :

G. Schumacher. Tell el Mutesellim, vol. I, Leipzig 1908, —; C. Watzinger, vol. II Leipsig 1929; S.- Cl. Fisher. The excavation of Armageddan. Chicago, 1938; Revue Biblique, 1934; Syria, 1937; Quart. of the Dep. of Ant. in Pal. I, p. 161 s ; III, p. 178 s. ; IV, p. 202 ss. ; V, p. 202; VI, p. 218; VII, p. 45 s.


عكا
تل كيسان
تل ابو الهوام
تل القسيس
ماجدو
تعنك
بيسان
اليرموك
الأردن
جرش
الزرقا
نابلس
رأس العين
يافا
سيلو
عمان
عي
اريحا
تل الجزر
تل الفول
تل غسول
القدس
تل الجديدة
بيت سور
تل ددير
حبرون
تل الحسي
غزة
تل الجمول
بيت مرسيم
تل العارم
وادي غزه
مواقع التلول الأثرية المهمة
في فلسطين
٥٠ ك.م

(اللوح ٢)



١ — تل ماجدو ۰ مقطع خندق القلعة ۰

كتل حجرية منحوتة

١,٢٠

١,٧٥

احجار صغيرة جدًا

١,٣٠

احجار صغيرة

٠,٣٥

٠,٦٥

صخر

تهيئة من الجص

صخر

منحدر

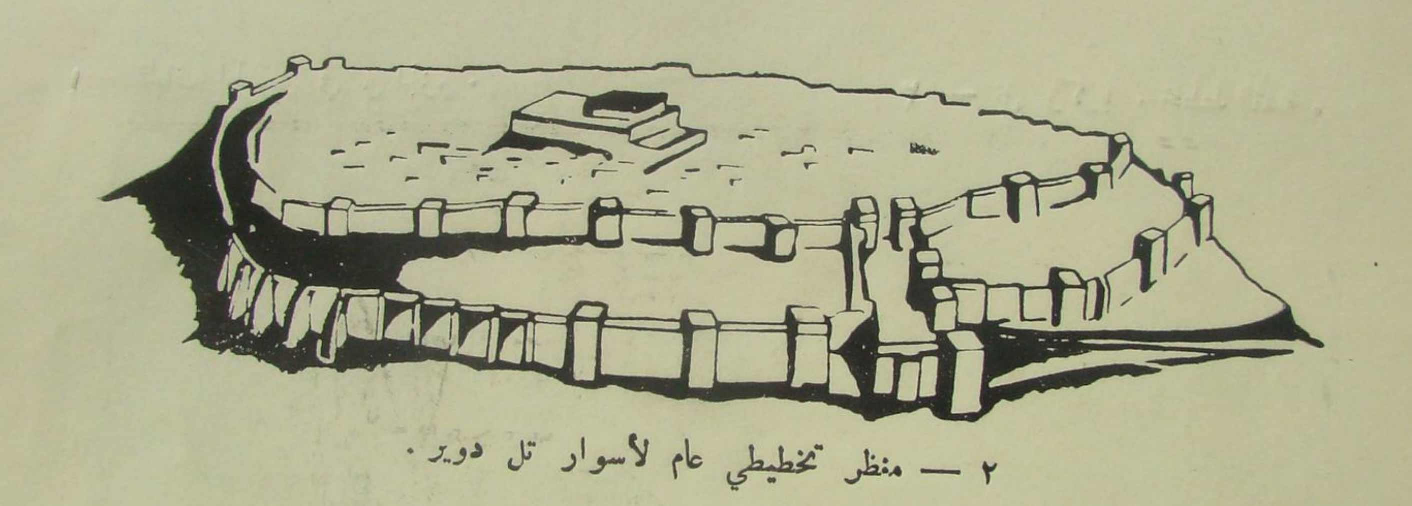
طوب

مونه طوب مرصوص احجار منحوتة مرصوفة

٢ — تل تعنق ۰ مقطع السور الغربي في القلعة ۰

(اللوح ٣)

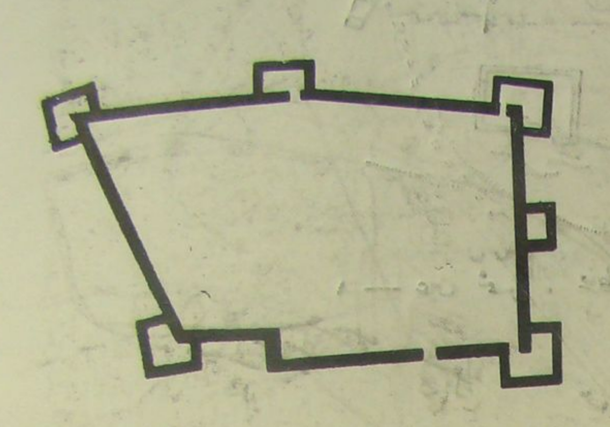
١ ـــ عين شمس . مخطط عام للأسوار والباب الجنوبي .

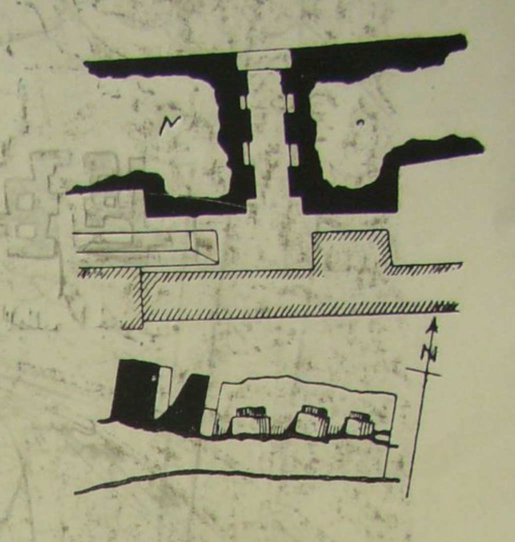


٢ ـــ منظر تخطيطي عام لأسوار تل دوير .

٣ ـــ باب محصن من تل الفرعة .

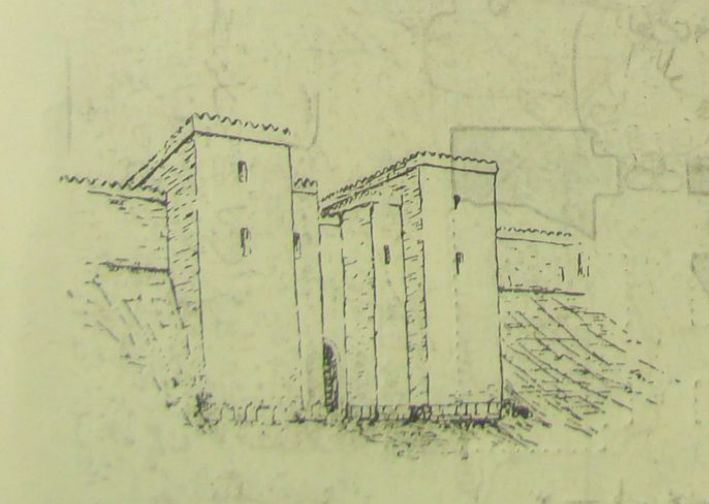
(اللوح ٤)

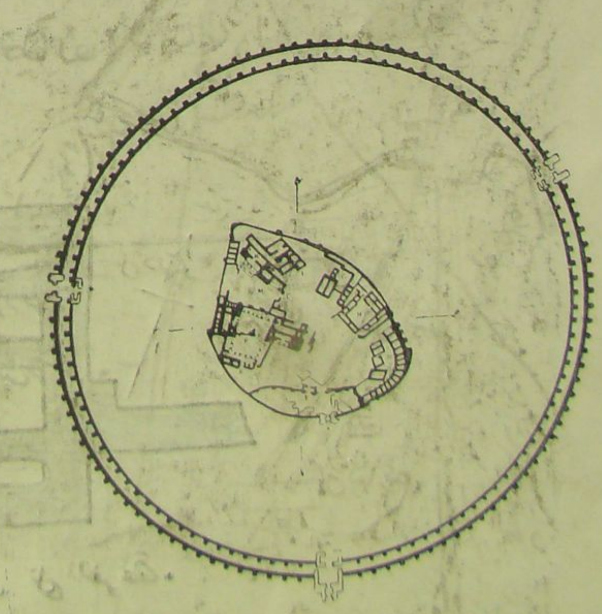




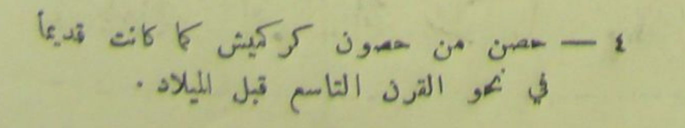
١ ـ الباب الجنوبي في تل الجزر .

٢ ـ تل زكريا . مخطط القلعة .





٣ ـ مخطط أسوار زنجرلي وأكربولها .



٤ ـ حصن من حصون كركميش كما كانت قديماً في نحو القرن التاسع قبل الميلاد .



١ — سكجي كوزي ، إحدى المدن الحثية المحصنة في شرقي سورية ، مدخل حصنها مع زخارفه المنحوتة .



٢ — منظر عام لمنحدر قلعة راس شمرة ، ويرى فيه بابها . وقد كشفت عنه مؤخراً حفريات المسيو شيفر .

(اللوح ٦)

منطقة الحدود الرومانية العسكرية
الاقليم. الأمطار والمياه
منقول من كتاب بوادبار

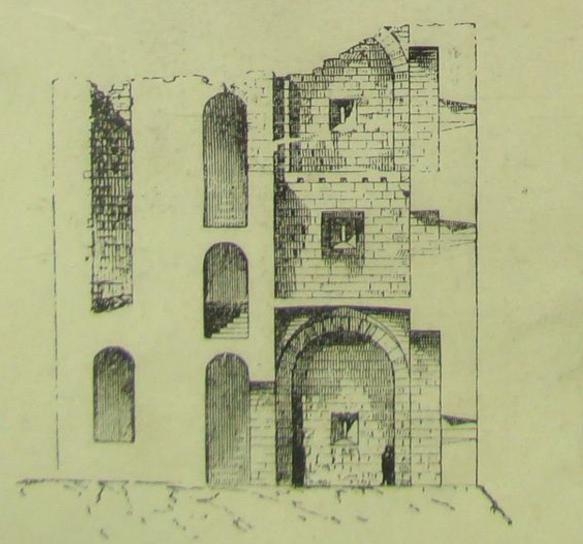
خط التحصينات العسكرية الرومانية
حدود الاقليم الصحراوي
منحنى الأمطار والسيول

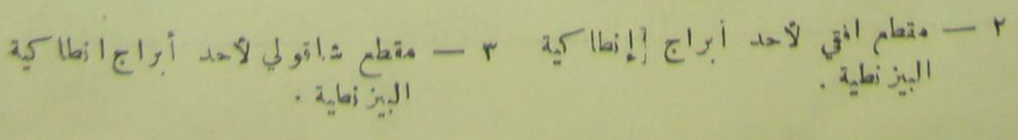
(اللوح ٧)



منظر الصالحية (دورا اوروبوس) من الجو ، من جهتها الجنوبية الشرقية .

١ — منظر عام لأسوار إنطاكية البيزنطية وأبراجها التي كانت تمتد على هضبتها قبل تهدمها .





٢ — مقطع افقي لأحد أبراج إنطاكية البيزنطية .

٣ — مقطع شاقولي لأحد أبراج انطاكية البيزنطية .

السور الثاني ويبلغ سمكه نحو ٤ إمتار (١) . وقد تخربت هذه الأسوار كما تذكر التوراة في زمن نفوذ الاسرائيليين إلى فلسطين .

وهنالك عدد من المواقع الحصينة تمتد بين هضاب السامرية وجبال اليهودية . منها منشآت (تل البلاطة) الواقعة على بعد كيلومترين من نابلس والتي قيل عنها إنها (سيشم) القديمة . وقد عثر على سور قديم جداً فيها ثخنه (٢،٧٠ م) وهو من الآجر واسسه من الحجر . وتبين أنه هدم وبني بدلاً عنه سور آخر له منحدر من الطوب ، تدعمه جدران استنادية مائلة من الأحجار الضخمة . ويعد نموذجاً رائعاً عن الأسوار التي كانت تحتمي وراءها المدن الفلسطينية في اول الألف الثاني قبل الميلاد . ولتل البلاطة سور آخر يرقى عهده إلى أزمنة الاغارة الاسرائيلية . وله منحدر مبني من احجار مسواة تبلغ ابعادها احياناً نحو مترين ، ومايزال ارتفاع بعض اجزاء هذا السور نحو سبعة امتار ، ويؤلف شكلاً بيضوياً . وله باب شمالي حصين طوله (١٦ متراً) وعمقه (١٨متراً) . وفيه دعائم ضخمة داخلية مستطيلة تؤلف كماشة ذات فروع ثلاثة (٢).

ويجدر بنا بعد هذه اللمحة المسرعة في جنوبي سورية ان ننوه بذكر بعض المنشآت العسكرية التي اظهرتها الحفريات في المناطق الأثرية الشمالية . ومنها ما احاط بالمدن الساحلية ، ومنها ما ضم المدن الداخلية وسنذكر المهم منها . واولى هذه المناطق مدينة جبيل المهمة التي تتبوأ بمكتشفاتها مكان الصدارة بين المدن الأثرية السورية القديمة (٣) ، إذ انها سكنت منذ ازمنة ما قبل التاريخ ، واستمرت على اجتذاب السكان اليها خلال آلاف عديدة من السنين . ولم يكن لها في اول حياتها ما يدفع عنها غائلة المغيرين الا مناعة موقعها الطبيعي الذي هو مرتفع صخري محصور بين واديين عميقين ، وينتهي برأس عال مشرف على البحر . وقد ساعد هذا الموقع على تشييد منشآت دفاعية فيما بعد . لما اتسعت المدينة واصبحت مركزاً عمرانياً مهماً . وقد اكتفى السكان الأول أن أحاطوه بسور من ناحية البر فأصبح حصيناً جداً . وفي آخر الألف الثالث قبل الميلاد توسعت المدينة ، واحيطت بسور ضخم يتألف من كتلة كبيرة من الغضار

---

(١) Sellin - Watziger. Jericho; P. Vincent, Revue Biblique 1936 p. 403; Garstang PEF 1930 - 1931 - 1932 - 1935.

(٢) يرجع في معرفتها خاصة إلى : Quart. of the Dep. of Ant. in Pal., V, p. 196.

(٣) تجري في جبيل أعمال أثرية مهمة منذ سنة ١٩٢٠ ، وقد قام بها في السنوات الأولى المسيو (بيير مونته) ثم تابعها المسيو (موريس دونان) ، وما زال مستمراً فيها حتى الآن .

ويدعمه من الداخل جدار من الأحجار مسنود بالدعائم ، ومن الخارج منحدر من الغضار[١] . وتعاقب مكان هذا السور أسوار عديدة أخرى كانت تبنى حسب تخطيطاته ، وذلك خلال مراحل التاريخ الطويل لهذه المدينة . حتى أدى تعاقب منحدرات السور إلى جانب بعضها بعضاً إلى أن يكون سمكها نحو (٢٥ متراً) . وكان للسور بابان واحد في الشمال الغربي ، ويؤدي إلى حي المرفأ . والثاني في الشرق ويؤدي إلى المزارع المحيطة بالمدينة . وفي العهد الروماني امتدت مدينة جبيل إلى كل الجهات ، واصبح المرتفع الصخري (اكروبولا) لها ، يختص باحتوائه على معابدها الأساسية . وفي زمن الصليبيين انحدرت منازلها إلى حي المرفأ ، واحيطت بسور جديد وجعل لهذا السور حصن حصين في زاويته الجنوبية الشرقية[٢] .

ومن المنشآت العسكرية القديمة في سورية حصون قلعة حماه ، الواقعة في شرقي تلها والتي اكتشفها الدانيمركي (هارولد انكولت) خلال حفرياته الرابعة والثامنة[٣] . ومنها برج ضخم فيه مدخل واسع ويتألف من بناءين من الطوب ، وفيهما بعض الأحجار البازلتية ، ويبلغ ما تبقى من ارتفاع الأسوار خمسة امتار . وإلى جانبي الباب اسدان منحوتان في الأحجار البازلية . وفي المدخل عمودان ، وترتفع ارض هذا المدخل تدريجياً . وفي يسارها درج يصعد منه الى قاعة صغيرة تؤدي الى قاعة كبيرة مبنية ضمن البرج ، وتقابلها من الطرف الآخر من الباب قاعة مماثلة ، ولا شك ان هذه القاعات الثلاث كانت تأوي الجنود الذين يدافعون عن القلعة ، ويقفون على الأسوار لما يهاجمها العدو . ومن هذه المنشآت البناء الذي اعطاه (انكولت) رقم (٢) والواقع الى الجنوب الغربي من البرج المتقدم . ويرتفع عنه بمقدار (٨ امتار) . وفيه قاعة كبيرة تحتوي على ثلاثة ادراج في جنوبها وشرقها وغربها ، وتصلها بأجزاء هذا البناء التي تتألف من غرف مستطيلة متصلة ببعضها . ويظن ان هذه الغرف كانت مستودعات للمؤن

---

(١) انظر فيما كتبه عنها السيد موريس دونان في كتابه :
M. Dunand : Fouilles de Byblos. Tome 1er, Paris 1939.

(٢) نحن مدينون بهذه المعلومات إلى المسيو (جان لوفريه) زميل المسيو دونان في حفريات جبيل ، فاليه شكرنا العميق عنها .

(٣) التي قامت بين سنتي ١٩٣٤ — ١٩٣٨ ، أنظر في :
H. Ingholt, Rapport préliminaire sur Sept Campagnes de fouilles à Hama en Syrie (1932 1938) — 1940, p. 65.

المخزونة في القلعة واصطبلات لرواحل الجنود . ويوجد بناء رقم (٣) في شمالي البرج الأول وعلى طرفي مدخله اسدان منحوتان وله مدخل واسع تحيط به عدة غرف . وكذلك يوجد بناء رابع في الشمال الغربي من البناء المتقدم ابانت الحفريات ان فيه عدة غرف مستطيلة متتابعة . ويظهر ان كل هذه الأبنية من فاتحة الألف الثاني قبل الميلاد .

وشبيه بالمنشآت العسكرية المتقدمة قلعة (المشرفة) المربعة التي تبلغ مساحتها الداخلية نحو كيلو متر مربع واحد [1] ، واضلاعها الأربعة موجهة إلى الجهات الأصلية . ويبلغ ارتفاع سورها الباقي (١٥ متراً) في جهات مختلفة و (٢٠ متراً) في زاويتها الشمالية الشرقية . ولا ريب ان هذا السور كان اعلى مما هو عليه الآن ، وانه كانت توجد له ممرات في اعلاه تسير عليها الجنود . وقد زالت الآن . ويلاحظ ان سوية القلعة الداخلية اكثر ارتفاعا من سوية الأرض الخارجية ، وان للقلعة ستة ابواب . منهـا البابان الشرقي والغربي . وفي طرفي مدخل كل منها عضائد مربعة مقامة بصورة متناظرة فتحدث ممراً تعترضه عضائد ناتئة كالتي تحدثنا عنها في مدخل ابواب المدن السورية القديمة . وبقية الأبواب بسيطة ، ولا تشبه البابين المتقدمين . ومنها الباب الجنوبي ، وفيه برج كان يعتصم به رماة النبال .

وأهم أجزاء سور المشرفة البرج الذي سمي باسم (برج العالم كايرمون غانو) ، وهو يقع في الزاوية الشمالية الشرقية ، ويؤلف مرتفعاً له زاوية قائمة على منحدر اصطناعي ينفرج انفراج زاوية قدرها (٣٠—٤٠ درجة) ، وينحط في مهبط خندق قديم . وأخيراً فان أسس سور المشرفة متينة وتتألف من قاعدة من الأحجار الجصية التي يبلغ ارتفاعها (٢٠سم) وفوقها بناء من الطوب سمكه (٢،٦ م) . ويعود عهد هذه الأسوار إلى نحو سنة (١٦٠٠ ق.م) .

ومن المدن السورية الداخلية القديمة المحصنة التي نالت شهرة كبيرة في الزمن القديم (قادش) القريبة من حمص ، والتي كانت تحول دون تغلغل جيوش فراعنة الأمبراطورية المصرية الحديثة ، في سورية الشمالية منذ عهد تحوتميس الأول . وقد انتزعها هذا الأخير من أيدي الأمراء

---

(١) تقع هذه المدينة على بعد (١٨ كم) تقريباً إلى الشمال الشرقي من حمص . ويعود عهد ازدهارها إلى النصف الأول من الألف الثاني . وجرت فيها حفريات خلال سنوات (١٩٢٤—١٩٢٥) تحت إشراف الكونت دومنيل دو بويسون . أنظر كتابه :

Comte de Mesnil du Buisson : Le site archéolagique de Mishrifé - Qatna. Paris, 1935 p. 40.

المتحالفين تحت اشراف قوم الميتانيين الذين عاشوا في شمالي سورية بين الفرات والخابور ، وألفوا أمبراطورية واسعة خلال ذلك الزمن (١) . واشتهرت هذه القلعة أيضاً بالمعركة الكبرى التي جرت بالقرب منها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر قبل الميلاد بين رعمسيس الثاني وبين موتاللو الملك الحثي الذي وحد بين أمراء وملوك سورية الشمالية . وتقدم لنا قصيدة (بانتاور) التي تمجد رعمسيس الثاني كثيراً من تفاصيل هذه المعركة (٢) . وقد فاجأ الحثيون جيش رعمسيس وأوشكوا أن يقضوا عليه لولا ما أظهره من شجاعة . غير أن المعركة لم تكن حاسمة وثبتت قلعة (قادش) ولم تسقط . ويمثلها لنا مشهد مصور في معبد (أبي سنبل) من مصر وهي محاطة بنهر ، ولها سور مزدوج مستدير ، وبينهما خندق مملوء بالماء . وفي سنة (١٩٢١) أجرى المسيو (بول بيزار) حفريات أثرية في موقع (تل النبي مند) من سهل حمص . وهو تل مرتفع يبلغ علوه (٣٢ متراً) ، وطوله كيلومتر واحد . فعثر هناك على سور ضخم . ويؤسفنا أن هذه الحفريات لم تجر إلا خلال فصلين ، وتوقفت بسبب موت من قام بها . وأكبر الظن أنه كان للمدينة سور مزدوج كما تبين ذلك صورة معبد (أبي سنبل) (٣) .

ولدينا بناء عسكري من نحو منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، وهو قلعة رأس شمره الساحلية ، التي يمثل بناؤها بعض عناصر الفن العسكري السوري في الساحل الشمالي السوري . ويظن أن هذه العناصر هي التي أثرت في الفن العسكري للحثيين ، ونشا عنها تحصينات (بوغازكوي) وغيرها . وقد كشف المسيو كلود شيفر التراب عن قلعة رأس شمره وأخرج برجها المربع في فصلي حفريات سنتي (١٩٣٨ — ١٩٣٩) . فظهر أنها تفوق بأبعادها والمبادئ التي بنيت

---

(١) ويعتقد كثير من المؤرخين ان هذه الأمبراطورية امتدت على سورية ومصر خلال عدة قرون وأنها كانت أمبراطورية الهيكسوس المعروفة .

(٢) كتبت هذه القصيدة على بعض أوراق البابيروس ، وعلى جدران معابد (الكرنك ، والأقصر وأبيدوس) أنظر :

1) Ch. Kuentz : La bataille de Kadesh, Mémoires de l'I. F. A. Q., t. LV (1928).

2) سليم حسن : منشورات الجامعة المصرية ، الجزء الثاني (١٩٢٩) : قصيدة بانتاور

3) Breasted, Battle of Kadesh. Pub. de l'Université de Chicago . t. V, p. 81.

(٣) انظر في كتاب بول بيزار الذي نشر بعد موته :

M. Pezard : Kadesh. Mission archéologique à Tell Nebi Mend. Paris 1931.

عليها جميع المنشآت العسكرية المماثلة في الشرق الأدنى . وتقع بين ذروة تل رأس شمره ، وسفحه الجنوبي . وتؤلف بمجموعها سوراً حجرياً ضخماً قطره (١٦ متراً) . ولها قاعدة مسواة وفوقها منحدر يميل بزاوية مقدارها (٤٥ درجة) . ثم ينتصب برج ضخم طول ضلعه (١٤ متراً) ، وسمك جدرانه (٥ أمتار) . وفيه حجرات صغيرة كان يقيم فيها جنود مكلفون بالدفاع عنه . كما أن له ممراً تحت الأرض يسمح لهؤلاء الجنود بالخروج منه ومباغتة المهاجمين أو إنجاد حي (مينة البيصة) في حالة تعرضه لإحدى الهجمات . وتعترض مسير هذا الممر درجات واطئة جداً ليتمكن الفرسان من المرور عليها ، واجتياز الباب الخارجي . ويعلو هذا الباب عن سوية الممر بـ (٦ امتار) . ويتقرب طرفاه قليلاً من الأعلى وتجمعها بلاطة عرضها متران . أما سقف الممر فهو بارز عن الجدارين ويتألف من أحجار مقطوعة ومنحوتة ومتصلة ببعضها بصورة فنية دقيقة للغاية .

ولم تبق الأيام ويا للأسف على جمال هذا البرج ومتانته . إذ أن ضغطه العظيم أثر في الأرض المنحدرة على الرغم من عمق أسسه ، فانخسف سقف الممر المتصل بالباب منذ الزمن القديم . فحاول سكان أوغاريت ان يمنعوا انهيار الصفوف الحجرية بواسطة تشبيكها ببعضها ، فلم يتمكنوا من تلافي الخطر تماماً ، فما كان منهم إلا ان سدوا الباب بواسطة إنشاء جدار مكانه . ومهما يكن فان هذا البرج يدل على التقدم المدهش الذي بلغه فن العمارة العسكرية في منتصف الألف الثاني في أوغاريت ، بعد كل التجارب التي مر عليها في القلاع الفلسطينية (٢) . ولم يوضح إلى الآن تأثير هذا الفن في المنشآت العسكرية الميسينية التي استخدمت فيها طرق مشابهة في قطع احجار زاوية الأبنية وتشبيك جدرانها وسلسلتها كما يظهر ذلك جلياً في اصول بناء قلعة طروادة الهومرية ، وهي المدينة الثانية التي اكتشفها شليمان ودوربفيلد ، وفي اسوار مدينتي (تيرنت) و (ميسين) المشهورتين (٣) .

• • •

---

(١) انظر في مقال كلود شيفر في مجلة Syria سنة ١٩٣٨ ، ص ٢٨٩ .

(٢) والذي سيبلغ الذروة كما سنرى في بحث يأتي في قلعة حلب وقلعة الحصن .

(٣) إقرأ مقال كلود شيفر الأخير حول هذا الموضوع ، في مجلة سيريا سنة ١٥٩١ ، الجزأين الأول والثاني ، ص ٤ وما يتبعها .

وقد تطورت مبادىء المدرسة العسكرية السورية في الدفاع بعض التطور بسبب احتكاك الأقوام السورية بالحثيين ، ومجيء هؤلاء إلى سورية الشمالية ، وسكنهم في مدن انشأوها ، وجعلوها احياناً مستطيلة ، واحياناً دائروية ، واحياناً ذات حدود غير منتظمة . ويضيق بنا المقام عن وصفها كلها لذا فاننا نخص بالذكر منها (كركميش) و (زنجرلي) .

وتمتد اطلال (كركميش) في جرابلس الواقعة على الفرات . وكانت إحدى عواصم الحثيين في ازمنتهم الأخيرة ومدينة تجارية كبرى ، تصرف فاعلية شديدة مع بلاد الرافدين والبحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى . وتشكل مخلفاتها هضبة حوارية على الشاطىء الأيمن للنهر . وجرت فيها حفريات انكليزية بين سنتي (١٨٧٦ — ١٩١٩) . وقد قام بالاشراف عليها العالمان المشهوران (هوغارت) و (دولي)[١] . وتبين من نتائجها ان الحثيين اتوا إليها نحو سنة (٢٠٠٠ ق.م) وبنوا فيها قلعة ذات شكل بيضوي تهيمن على الفرات ، ولها منحدرات من الجانبين . وقد اتسعت المدينة التي كانت في داخلها خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد ، فتجاوزت حدودها السور ، فاضطر سكانها لبناء سور ثان خارج السور الأول وجعلوا له ثلاثة أبواب . وهذه الأبواب من نوع الأبواب « الكماشة » ، وحول كل منها برجان وبينها ألواح منحوتة ومزينة بمواضيع ميتولوجية وحيوانية ومشاهد صيد وغير ذلك . وكان هذا السور يشبه السور السابق غير أن أضلاعه كثيرة وبعضها مستقيم ، وبعضها محدب ، ويتقرب بشكله العام من الشكل المستدير ، وله نحو مائة برج متوزعة على أطرافه . وبلغت المدينة في النصف الأول من الألف الأول أوج عظمتها ، واتسعت كثيراً ، حتى دفع أهلها إلى بناء سور ثالث أكثر اتساعاً من السور الثاني . ويتألف من خطين من المنشآت العسكرية المتوازية ويبتعدان عن بعضهما نحو (٩ امتار) . ويؤلفان شكلاً مستطيلاً منتظماً قريباً من المربع . كما أن آثار أبراجه تدل على أنها كانت أيضاً مستطيلة . وأسوار كركميش كلها من الآجر الذي يستند على أسس من الأحجار الضخمة والأحجار الصغيرة . والخلاصة ان أسوار

---

(١) أنظر للاستزاده من المعلومات الأثرية ; المتعلقة بهذه الحفريات :

Report of the excavations at Djerabis on behalf of the British Museum, par D. G. Hogart, Part I. Introductory (1941); C - L Wooly : Part II. The Town defences (1921).

هذه المدينة تطورت كثيراً واجتازت ثلاث مراحل وانقلبت من الشكل البيضوي المستدير إلى الشكل المربع [١].

أما مدينة (زنجرلي) المستندة على سفح من سفوح (الأمانوس) على بعد (٨٠ كيلومتراً) من الاسكندرونة فانها تمثل موقعاً استراتيجياً وتجارياً ذا أهمية منقطعة النظير. إذ أنها تقع على طريق تجارية كبرى تمتد بين سورية والأناضول. ويتألف مركزها من تل يحيط به سور بيضوي. أما المدينة نفسها فهي محاطة بسور مزدوج الذي هو قاعدة من قواعد التحصينات العسكرية الحثية. وله شكل دائرة تامة يبلغ طول قطره (٧٢٠ متراً)، ويحتوي على مساحة قدرها (٤٠ هكتاراً). وكان له ثلاثة أبواب في شمالها الشرقي وغربها وجنوبها. وهي ولا شك على شكل الكماشة. وكانت مزينة بألواح ذات مواضيع تشبه مواضيع أبواب كركميش، وحول كل منها برجان. وفي بقية أجزاء السور أبراج كثيرة أخرى، ويبلغ عددها كلها نحو (٢٠٠ برج). وأكبر الظن أن عهد بناء السور يعود إلى فاتحة القرن الثالث عشر قبل الميلاد [٢]. وفي داخل السور توجد قلعة في الوسط يرقى عهد بنائها إلى العهد الآشوري، وطابع عمارتها متأثر إلى حد بعيد بالطراز الآشوري [٣].

• • •

ولما حلت الأزمنة اليونانية الرومانية كان الشعب السوري من أكثر شعوب العالم مدنية وفاعلية، ويلتفت إلى تصريف التجارة العالمية بين الشرق والغرب، ويتكاثر ويعمل بجد

---

(١) يقول Garstang في الصحيفة ٥٩ من كتابه: Empire Hittie، ما يلي:
«إن شكل الأسوار المستدير طبيعي وأولي، على حين أن الشكل المربع هو اصطناعي ومتأخر» وينطبق هذا القول خاصة على المدن الابتدائية التى تقدم ذكرها. والتى نشأت قبل نشوء الشكل المستطيل أو المربع للمدن في العصور الاغريقية الرومانية. على حين أن تطور هذه المدن في القرون المتوسطة سينقل شكل أسوارها من المستطيل إلى البيضوي او المستدير كما هو الحال في مدينة دمشق مثلا.

(٢) يراجع المصدر التالي:
Koldwey et Puchstein : Ausgrabungen in Sendschirli (Metteit aus den Orientalischen Sammlungen).
كما ينظر للاطلاع على مخطط السور في مقال: Pottier, Syria II, pl. III, fig. 41

(٣) انظر البحث الذي كتبه في الأبنية الأخرى المشابهة لمدينة (زنجرلي) العالم المشهور كريزول في كتابه: K.A.C. Creswell : Early Muslim Architecture. Oxford, p. 10 et s.

ونشاط في الإكثار من المراكز العمرانية . لهذا فقد اتفقت نزعات الحضارة الجديدة التي أتى بها الاسكندر الكبير وخلفاؤه مع ما في نفوس أفراده من نوازع . فقام يساهم في تشييد المدن الجديدة وتجديد مدنه القديمة ، وفي تحصينها تحصيناً يصونها من المغيرين [1] . وقد اعتمد في ذلك على مبادىء فن العمارة التي انتهت إليه من العصور السابقة ، وهي الأسوار المحاطة بالخنادق والمدعومة بالأبراج ، والقائمة على المنحدرات ، والتي ينفذ إليها من أبواب محصنة . وأضاف إلى هذه المبادىء مبدأ جعلها على شكل مربع أو مستطيل كان قد انتشر كثيراً خلال هذا الزمن في كل أقطار عالم البحر الأبيض المتوسط التي نفذت إليها المدنية اليونانية الاغريقية .

ومن أشهر المدن المحصنة السورية التي نشأت في العهد الهلنستي (انطاكية) عاصمة الملوك السلوقيين الواقعة على نهر العاصي . وكانت منقسمة إلى أربعة أحياء ومحاطة بأسوار منيعة . ولا يدرى كيف كانت هذه الأسوار لأنها استبدلت بغيرها عدة مرات فيما بعد . ثم مدينة (افامية) التي بناها « سلوقوس نيكاتور » وأسماها باسم امرأته الفارسية ، وجعلها مدينة حربيه . واقام فيها اصطبلات للفيلة والخيول لقربها من السهول والمراعي ومقراً لخزانته ومستودعات مؤنه وذخائره . وكانت تحيط بها أسوار حصينة يبلغ محيطها ستة كيلومترات . وكان لها قلعة حصينة بقيت إلى زمن الرومان حيث هدمها بومبه [2] . على أن أشهر المدن العسكرية السورية التي نشأت في ذلك الزمن مدينة (دورا اوروبوس) الواقعة بالقرب من الحدود السورية العراقية الحالية ، على مرتفعات علوها خمسون متراً ، وتهيمن على نهر الفرات ، وهي معزولة من جهاتها الثلاث بواد عرضه (٤٠٠ — ٥٠٠ متر) وبواديين صغيرين . ولا يمكن بلوغها الا من الجهة الغربية . وكانت قلعة تمر عليها طرق القوافل . وقد أنشأها في القرن الثالث قبل الميلاد (نيكانور) من أعوان سلوقوس الأول وتهدمت سنة (٢٥٦ ميلادية) لما هاجمها الفرس . وقد أظهرتها الحفريات التي بدأت سنة ١٩٢٢ واستمرت الى سنة ١٩٣٧ ، وتبين بنتيجتها أن مساحتها كانت تبلغ نحو (١٣ هكتاراً) منقسمة بواسطة شوارع متقاطعة بزوايا قائمة

---

(١) أنظر البحث الذي ورد حول هذا الموضوع في كتابنا : « الفن الاغريقي وآثاره المشهورة في الشرق . دمشق سنة ١٩٥٠ ، ص ١٧٨ وما بعدها » .

(٢) لدى استيلائه على سورية وإلحاقها بالأمبراطورية الرومانية سنة (٦٥ ق.م) .

إلى جزيرات مستطيلة ، وأنها كانت محاطة بأسوار وأبراج وحصون حصينة (١) . وتدل آثارها على أنها من أهم المنشآت العسكرية الهلنستية . ولا يعرف اسم المهندس الذي بناها . ويظن أنها مستوحاة من أصول فن البناء العسكري الذي كان منتشراً في البلاد السورية . وتمتد هذه الأسوار على شكل مضلع غير منتظم . وهي مبنية من أحجار جصية مقطوعة قطعاً جيداً . وتوجد بينها (مونة) جصية أيضاً . أما الأبراج فإنها مربعة ومستطيلة ، ويبتعد كل منها عن الآخر بـ (٧٥،٨٠ متراً) . ويتألف كل منها من طابقين أو اكثر . وأشهرها (برج رماة الرماح) و (برج التدمريين) و (برج خماسي) في السور الجنوبي . وهذا البرج الأخير من أجملها ، ويعد من أكثر الآثار الهلنستية ندرة في سورية . وكان للمدينة ثلاثة أبواب ، ويقع الأول في طرفها الغربي المطل على الصحراء ، وهو باب (تدمر) ، ويحده برجان بارزان ، في كل منهما بابان متداخلان يعلوهما قوس مدور وارتفاعهما (١١ متراً) حالياً . ويقوم الثاني في جهة النهر ، والثالث في جنوبها ، ويشرف على أحد الواديين الصغيرين . وقد زالت منشآت هذين البابين الأخيرين الآن .

وتوجد في طرف المدينة المطل على الفرات ، قلعة مفصولة عن بقية أحياء المدينة بخندق طبيعي ، عرضه (١٠٠ م) . وشكلها مستطيل ، طوله (٣٥٠ م) ، وعرضه (٥٠ م) . ويقوم في كل زاوية من زواياها برج ، طوله (٢٦ م) . أما أسوارها فهي مبنية من أحجار تشبه أحجار السور التي وصفناها . وأخيراً يقع وراء هذه القلعة حصن تهدم أكثره ، ولم يبق منه إلا بعض أسواره التي تتميز عن غيرها بأن أحجارها الخارجية تبرز سطوحها وتتحدب قليلاً .

ومن المدن السورية العسكرية التي جدد بناؤها في هذا العهد (حلب) ، وقد دعيت آنئذ (بيروا) ، ثم مدينة (دمشق) . وقد أحيطت هاتان المدينتان بالأسوار . غير انه يصعب على المختصين بالآثار ان يفرقوا على وجه التأكيد بين اسوار هذا العهد ، والأسوار التي نشأت في

---

(١) اقرأ ما كتب عن هذه الأسوار في كتاب :
F. Cumont, Fouilles de Doura - Europos (1922 - 1923), Paris 1926, pp. (1-24).
كما أننا ذكرنا لمحة مفصلة عنها في الصحيفة (١٧٩) وما بعدها من كتابنا : « الفن الاغريقي وآثاره المشهورة في الشرق ، دمشق ، ١٩٥٠ » .

العهد التالي . وقد زالت أسوار المدينة الأولى (١) ، وسنتكلم بعد قليل عن اسوار المدينة الثانية . وفي الواقع أصبحت البلاد السورية في هذا العهد الأخير جزءاً من امبراطورية كبيرة تمتد على كل اقطار البحر الأبيض المتوسط ، وتتاخم حدودها حدود امبراطورية الفرس في حوض الفرات خاصة . وكان على هذه البلاد ان تتعاون سياسياً وعسكرياً مع الرومان في تأمين دفاعها على خطوط متوازية تبدأ من بصرى فتمر على مرتفعات حوران والصفا البازلتية ، وتمر بدمشق ثم تتتابع على جبل الرواق ، ثم الى تدمر فجبل أبي رجمان وجبل البشري حتى تصل إلى الفرات . ويؤلف النهر بين صوريا (سورا) والبصيرة (سركسيوم) حاجزاً جبلياً . وثم تصعد على مجرى الخابور ، إلى ان تبلغ جبل سنجار ذي المنحدرات الصخرية والخالي من الممرات التي تسمح للفرسان بالمرور ، وأخيراً تبلغ ديار بكر . وتتألف هذه الخطوط العسكرية من قلاع كبرى حصينة كقلاع بصرى وتدمر ونصيبين ودورا اوروبوس ومن حصون مربعة كحصن الضمير ، وخان عياش ، وخان الشامات ، وخان المنقورة ، وخان التراب وخان الحلابات وغيرها . وهذه الحصون معززة بأبراج نصف مستديرة او مربعة او مستطيلة ، وتتوزع على مراحل طريق الحدود التي ذكرناها ، وتتخللها احياناً ابراج مربعة صغيرة كانت تؤلف محطات للمراقبة ويقيم فيها الجنود ، ويتصلون منها بزملائهم بواسطة الاشارات الضوئية ، ويقدمون إلى المسافرين ما يحتاجون من ماء الآبار التي كانوا يفتنون في حفرها ، او الأقنية التي كانوا يشقونها ، ويأتون بها من مسافات بعيدة (٢) . وكانت دمشق المركز الهندسي والستراتيجي لهذا الجهاز الدفاعي الكامل الذي تم تشييده خلال القرون الميلادية الأولى . وكان سورها يمتد على شكل مستطيل منتظم طوله (١٣٤٠ م) وعرضه (٧٥٠ م) ، ويحوي في داخله مساحة من الأرض تقدر بمائة هكتار . وكانت لهذا السور سبعة

---

(١) يظن أن القسم الغربي من سور حلب الذي يرجع عهده إلى القرون المتوسطة قد أنشىء على أسس السور الروماني ، كما أن أحجاره التي بني بها أخذت من بقايا السور القديم . والظاهر أن تخطيطه السابق كان مستطيلاً ، وأبعاده (٩٥٠ م × ١٠٠٠ م) . وهو يتجه حسب اتجاه الجهات الأصلية ، وتقع أبوابه مكان أبواب السور العربي أنظر :

J. Sauvaget: Alep, Paris 1941, p. 42.

(٢) يجدر الرجوع في تفاصيل هذه المنشآت العسكرية السورية الرومانية إلى الكتاب الآتي :

A. Poidbard : La trace de Rome dans le desert de Syrie, Paris 1924.

ابواب وصل إلى عصرنا منها باب واحد فقط ، وهو الباب الشرقي الذي كان ينفذ من مداخله الثلاثة الناس إلى شارع المدينة المستقيم الذي يمتد من شرقها إلى غربها . وكان مدخله المتوسط يقابل منتصف الطريق . وقد سد هذا المدخل والمدخل الجنوبي في القرون الوسطى . ولم يبق الا المدخل الشمالي ، ويرجع عهده الى آخر القرن الثاني أو أول القرن الثالث الميلادي [١] .

ولا مراء ان هذه الخطوط لم تكن حدوداً للبلاد السورية كما هي حدودنا الحالية ، بل كانت مجموعة من الطرق المحصنة التي تؤلف منطقة عسكرية منيعة ضمن البلاد وخارجها ، وتستفيد من شروطها الطوبوغرافية ، وإن كانت هذه الأراضي غير صالحة للدفاع . إذ ان خطوط الفرات ودجلة النهرية تتجه خاصة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي ، فتؤلف ممرات طبيعية للغزوات ، لا حدوداً للدفاع . ومهما يكن فإن الخطوط العسكرية الرومانية كانت تجتاز البلاد السورية بصورة مائلة وتؤلف في نهاية شبه جزيرة العرب أول خط طبيعي للدفاع يمكن اركاز حاجز اصطناعي عليه .

ولا يظن ان وقوع هذه الخطوط العسكرية في منطقة صحراوية يجعل عيش الجنود المدافعين فيها صعباً . اذ ان الأمطار تهطل على مناطقها ، فتؤلف فيها بعض الينابيع ، والمياه الجوفية التي يمكن استخراجها من نقاط كثيرة . وتنبت في أراضيها الغضارية او اللحقية الحشائش التي ترعاها قطعان القبائل البدوية الرحل التي تمر في غدوها ورواحها بالقرب منها ، فتكون هذه الخطوط بآن واحد للدفاع ضد الفرس وضد سكان البادية . ولما كانت المسافات التي تقطعها شاسعة ، لذلك فإن الفرق التي كانت تدافع عنها تتألف غالباً من فرق الفرسان .

. . .

---

(١) يرجع في دراسة سور دمشق الروماني إلى مصادر متعددة ذكرناها في مصادر كتابنا : (مشاهد دمشق الأثرية) طبع دمشق ١٩٥٠ ، ومنها مقال :

J. Sauvaget : Le plan antique de Damas, Syria 1949.

ثم حلت الأزمنة البيزنطية فزادت أهمية البلاد السورية ، وازدهرت اقتصادياتها وامتلأت مدنها بالسكان ، واتصلت بعلاقات تجارية واسعة مع كل بلاد البحر الأبيض المتوسط كصقلية وافريقيا وسواحل الأدرياتيك وغاليا من جهة ، ومع مدن فارس وآسيا الوسطى والهند والصين من جهة أخرى . ونشأت في مدارس أنطاكية و (ايديس) الرها او اورفه الحالية ونصيبين وغزة وبيروت حياة عقلية واسعة . فوجب حماية هذه المدنية من اغارات المعتدين . وكانت هذه الاغارات تأتي من الشرق من أمبراطورية الفرس . لهذا فان أسياد القسطنطينية حملوا على العناية بالمنشآت العسكرية التي تقدم ذكرها ، واضطروا تعزيزاً لها للتخلي عن (نصيبين) و (سنغارا) وجعل (دارا) الحالية الواقعة في الأراضي التركية حالياً شمالي عمودا ، مركزاً رئيسياً في جهازهم الدفاعي . وقد دفعتهم هذه العناية لاتخاذ برنامج امبراطوري واسع لتجهيزها بكل ما هي بحاجة إليه لصيانة الحدود الأمبراطورية الشرقية . وأدت حالة الحرب الدائمة بينهم وبين الفرس إلى أن تطور فن إنشائها تطوراً سريعاً في زمن حكم (كونستانس) و (أنسطاس) و (ليون) و (جوستنيان) .

وقام الأمبراطور جوستنيان في القرن السادس يزيد عدد هذه الحصون ويربطها ببعضها بمخافر لتأمين الاتصال بينها ، ويجعل وراءها قلاعاً ضخمة ، أراد منها الدفاع على خطوط عسكرية داخلية إذا سقطت الحصون الأمامية . وقد ارتكزت هذه الحصون والقلاع على النقاط ذات الأهمية الستراتيجية كذرى المرتفعات والمضائق الجبلية . وقد توخى خاصة أن يجعلها خطاً متصلاً مع الحصون والقلاع البيزنطية التي تمتد على الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية ابتداءاً من البحر الأسود مثل قلعة (بتراجوستنيانا) في بلاد اللازيين الشمالية (جورجيا الحالية) وقلعة (تيودوزيو بوليس) وهي ارضروم الحالية في أرمينيا ، ثم قلاع (كيتاريزون) و (مارتيروبوليس) و (أميدا) وهي ديار بكر الحالية و (قسطنطينه) و (دارا) في بلاد الرافدين الشمالية ، وقلاع (تيودو زيو بوليس) الثانية و (سركسيوم) وهي البصيرة الحالية على الفرات ، و (زنوبيا) وهي حلبية الحالية و (تدمر) على حدود بادية الشام . ثم جعل على خط آخر وراء هذه القلاع والحصون خطوطاً أخرى فيها قلاع وحصون أخرى منها (نيكوبوليس) و (سيباسته) و (مالاطيا) التي تحمي أرمينيا ثم (ايدس) الرها و (كارهيس) حران و (كالينيكوم) الرقة إلى جنوبها

ومنبج في منطقة الفرات ، وأنطاكية ، وكانت قد نكبت خلال زلزال شديد في سنة (٥٤٠) كما أن الفرس تمكنوا من الوصول إليها وتهديم حصونها وأبراجها . فأعاد جوستنيان بناءها وجعلها موقعاً حربياً منقطع النظير في مناعته . وقد تهدمت اكثر هذه المنشآت ولم يبق منها إلا آثار قليلة . غير أن هذه الآثار كافية للدلالة على أن فن التحصينات العسكرية السورية البيزنطية بلغ ذروة الكمال في هـذا الزمن . وكانت كل قلعة كبرى من القلاع المتقدمة محاطة بثلاثة خطوط من الأسوار المنيعة التي تدعمها ابراج بارزة ، في كل منها طابقان من التحصينات . وكان السور الخارجي يجعل عالياً جداً ليمنع الأعداء من تسلقه والهيمنة على المدافعين كما أنه كان يجعل غليظاً ليثبت أمام القذائف الحجرية التي ترسلها آلات الحصار . وقد بلغ ثخن سور قلعة دارا الخارجي (٣،٧٠ م) وارتفاعه (١٨،٠٥ م) . وفيه طابقان ، وتدعمه أبراج عديدة[1] . ثم يأتي سور ثان ، ووراءه خندق واسع وعميق ، وأخيراً تقوم القلعة الداخلية التي يعتصم بها المدافعون لدى سقوط السورين الأول والثاني . ولا شك أن كل هذه الأقسام لا تتوفر إلا في القلاع الكبرى . أما القلاع المتوسطة فإنها كانت تحوي سورين فقط . ومهما يكن فان كل قلعة كانت تضم آباراً عميقة وصهاريج لخزن المياه وانباراً لحفظ المؤن التي تسمح للمدافعين عنها أن يحاصروا فيها مدة طويلة . ونحن ذاكرون فيما يلي بعض المعلومات عن أشهر المنشآت العسكرية البيزنطية في الأراضي السورية الحالية . ومنها :

قلعة الرصافة المسماة منذ أول القرن الرابع (سرجيوبوليس)[2] ، والتي كانت مركز معبد مسيحي ، ثم عرفت باسم (انسطازيوبوليس)[3] . وقد بنيت أسوارها وصهاريجها منذ ذلك الزمن . ثم تهدمت فجددها الخليفة هشام بن عبد الملك الذي كان يقيم فيها أحياناً[4] . وتختص أسوارها أنها من الأحجار الجصية المتبلورة التي قطعت من مقلع يقع على بعد عشرة كيلومترات إلى شمالها . وتمتد هذه الأسوار على شكل مستطيل يتجه باتجاه الجهات الأصلية ،

---

(١) بنى الأمبراطور انسطاس (دارا) سنة (٥٠٤ م) وأسماها (أنسطازيوبوليس) نسبة إليه . وجدد جوستينيان فيها بعد تشييدها ، وجعل فيها صهاريج ضخمة من الآجر .

(٢) لأن القديس سرج قتل فيها خلال حكم ديوكليسيان نحو سنة (٣٠٥ م) .

(٣) نسبة للامبراطور انسطاس (٤٩١ — ٥١٨ م) .

(٤) وزالت أهميتها فيما بعد وتناقص سكانها حتى أتى الملك الظاهر بيبرس ، فنقل ما بقي منهم إلى السلمية وحماة . وظلت الرصافة منذ ذلك الزمن مهجورة إلى يومنا هذا .

ويبلغ طوله (٥٠٠ م)، وعرضه (٣٠٠ م). ولها في منتصف كل ضلع من أضلاع هذا المستطيل باب. والبابان الرئيسيان هما الشمالي والجنوبي. ويبلغ ثخن الأسوار (٣ أمتار) ولها أبراج متعددة مستطيلة على الأضلاع، وأبراج مستديرة على الزوايا. وداخل هذه الأسوار مزدوج بأروقة محمولة على أعمدة تصلها ببعضها أقواس مدورة. وكان يوجد أمام الأسور خندق واسع، غير أنه ملىء اليوم بالرمال التي حملتها الرياح. وفي داخل القلعة يوجد عدد من الكنائس منها كنيسة القديس سرج في الجنوب الشرقي، وأربعة صهاريج عظيمة جداً كانت تملأ بمياه الأمطار وتمون سكانها القدماء.

وليس المقام ذكر الدور الذي لعبته مدينة تدمر في القرون الميلادية الأولى. غير أنه يجدر أن ننوه بموقعها الطبيعي كواحة يتقارب في أراضيها حاجزان طبيعيان أحدهما في الشمال الشرقي. وهو جبل البشري و (أبو رجمان). وثانيهما (طرق الأعلى) الجبلية. وهذا ما جعلها تحتفظ بأهميتها الستراتيجية إلى زمن جوستنيان الذي أحاطها بأسوار حصينة. وتمتد هذه الأسوار على شكل غير منتظم وتتقاطع اجزاؤه بزوايا مختلفة. وتتألف كل زاوية من أبراج رئيسية نصف مستديرة، ويوجد بينها أبراج مربعة في منتصف الأضلاع. وكذلك فإن أبوابها كانت تحميها ابراج نصف مستديرة. وقد استعمل في بناء هذه الحصون عدد من القطع المنحوتة الآتية من الأبنية التدمرية القديمة [1].

وأمام تدمر على ضفة الفرات اليمنى قلعة حلبية المشهورة (زنوبيا القديمة) التي تتحكم في المواصلات النهرية للفرات، وفي طرق القوافل في موضع اسمه الخانوقة [2]. وقد نشأت أسوارها منذ الأزمنة التدمرية. ولما أتى جوستنيان رمم هذه الأسوار وجددها. وشكلها مثلث متطاول توازي قاعدته النهر. أما ضلعاه الآخران فانهما يتسلقان على الأرض التي تصعد حتى زاوية المثلث العلوية الواقعة على مرتفع يشرف على كل الأراضي المجاورة. وللسور من جهة النهر بابان أو ثلاثة، ولها باب آخر في كل ضلع من ضلعي المثلث الأخيرين. وعلى

(١) أنظر مخطط هذا السور في دليل تدمر، للأب ستاركي.

(٢) يراجع مقال جان لوفرية المنشور في العدد الأول من الحوليات الأثرية للاستزادة في الاطلاع على خصائص حلبية.

هذه الأضلاع عدد من الأبراج المربعة المتشابهة . وتدل التحريات التي أجريت فيها على أن معظم أجزاء السور الشمالي بنيت قبل زمن جوستنيان ، على حين أن أبراج السور الجنوبي من عهد هذا الأمبراطور [١] . ومهما يكن فانها مبنية بالأحجار الجصية التي يكثر وجودها في منطقة الفرات ، ومتأثرة من نظريات العمارة العسكرية البيزنطية ، وان كانت طريقة تنفيذ هذه النظريات تختلف قليلاً عن طرق تنفيذها في الأبنية البيزنطية العسكرية التي ترى في جهات اخرى من الأمبراطورية البيزنطية .

وأخيراً فان مدينة أنطاكية الواقعة على سفح جبل في سهل ضيق يرويه نهر العاصي والتي بنيت في زمن خلفاء الاسكندر أصبحت من أهم الحواضر السورية . وقد حل فيها عدة أباطرة رومان في العهد الروماني ، واشتهرت بمعابدها الفخمة وحياتها الدينية العميقة ، وألعابها الأولمبية ، وينابيعها وغابتها (دفنه) المعروفة بغراميات (أبولون) . ولما نشب الصراع بين الأباطرة البيزنطيين والفرس أصبحت هذه المدينة قاعدة مهمة تسير منها الجيوش المرسلة إلى حوض الفرات الأعلى . لهذا فان الفرس حاولوا الوصول إليها عدة مرات حتى تمكنوا اخيراً من ذلك في زمن (كسرى انوشروان) واستولوا عليها وخربوا منشآتها وأسوارها . فقام جوستنيان يعيد تشييدها ويرفع أسوارها حول هضابها الأربع ويجعلها على تخطيطات جديدة ، فأتت هذه الأسوار نموذجاً كاملاً عن الفن العسكري السوري البيزنطي في أواخر القرن السادس . وظلت محافظة على قيمتها الدفاعية إلى زمن الصليبيين الذين أضافوا إليها بعض الحصون . وقد تهدمت خاصة في زمن ابراهيم باشا الذي ترك جنوده يستخدمون أحجارها في بناء ثكنات كبرى . وظل عدد من أبراجها إلى فاتحة القرن العشرين حيث رآها (ري) ووصفها [٢] . ويحدثنا عن آثارها فيقول إن عرضها متران ، وانها كانت تصعد على منحدرات جبل (سولبيوس) بأبراجها وشراريفها . واشكال هذه الأبراج مربعة ، وكلها متشابهة ، ولا توجد بينها إلا فروق طفيفة . وهي مبنية من الأحجار . ولكل منها ثلاثة طوابق . في الأول منها رواق ينتهي بدرج ، وقاعة لا يضيئها إلا المزاغل المفتوحة في جدرانها . وكان يصعد المدافعون على الدرج الطابقين الثاني

---

(١) يحسن النظر في المخططين (٣) و (٤) اللذين نشرا مع مقال (جان لوفريه) المذكور .

(٢) انظر الصحيفة (١٨٣) وما بعدها في كتاب :
G. Rey : Etude sur les monuments de l'architecture militaire des Croisés en Syrie.

والثالث ، ويمكنهم ان يصلوا منه إلى الأسوار التي كان يوجد عليها طريق تطوف بأجزائها . ويوجد حول هذه الأسوار خندق يأتيه الماء من قناة حفرها جوستنيان (١) . وفي وسط جبل (سلبيوس) تقوم قلعتها ، وكانت امنع من عقاب الجو ، لا لأن منشآتها ضخمة وحصينة فحسب ، بل لأن الوصول إليها متعذر . ويقال انه كان لها اربعة عشر برجاً . ويحدثنا (ري) عن اثنين منها ، وهما في الجنوب والغرب . وشكلها مستدير ، وقطرها غير كبير جداً .

سليم عادل عبد الحق

(١) كما يقول المؤرخ البيزنطي (بروكوب) في كتابه « الأبنية » : Procope : De Ædificus